أضواء على فكر المعتزلة

للدكتور
أحمد عبد الله الطيار
استاذ العقيدة المساعد
بجامعة الإمارات العربية المتحدة
كلية الشريعة والقانون

بسم الله الرحمن الرحيم

المعتزلة

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين . وصلوات الله وعظيم تسليماته على هادى الأمة وكاشف الغمة سيدنا محمد الذى أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ... وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .. وعلى آله الطيبين الطاهرين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ... وعلى الغر الصحابة الميامين الذى ساروا على نهجه واتبعوا النور الذى جاء به أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

وبعد ...

فمن يطالع تاريخ الفرق يجد أن المعتزلة من أكبر واهم الفرق التى دارت حولها الدراسات حتى لا تكاد تحصى كثرة وتنوعا – قديما وحديثا – فلم تحظ فرقة على مدى التاريخ باهتمام العلماء والنقاد ودلالة آرائها أصولا وفرعاً بمثل ما حظيت به المعتزلة .. تلك الفرقة التى انطلقت فى فترة تأسيسها من مبدأ تعظيم العقل وإكباره إلى حد تقديمه على النص عند توهم التعارض وجعله إماما يقتدى به وما عداه تبع له .

ولعل السر فى اهتمام الباحثين بالمعتزلة يرجع إلى ما أضافته هذه الفرقة للتراث والفكر ... ولما انفردت به من آراء وقضايا أهل السنة مجافية للمنهج الحق ، مخالفة للكثير من الثابت بالوحى الشريف كتابا وسنة ، معتمدة على تأويلات متكلفة لا يقول بها أهل السنة ولقد استطاعت منذ تأسيسها استقطاب عدد كبير من العلماء مما أدى إلى ازدياد النفوذ وتوسيع دائرة الاضطراب .

ومن هنا يمكن القول إن المعتزلة كان لها دور كبير في نشأة الحركة الفكرية والثقافية والتأثير في سيرتها بدءاً من أوائل القرن الثاني الهجري ثم اتسعت دائرة انتشارها وتأثيرها حتى استقطبت كثيرين من الخلفاء وظل هذا التأثير بما له وما عليه يزداد مع مرور الأيام قوة حتى بلغ مداه واستوى على عوده خلال القرن الثالث الهجري .

وهذا الذيوع والانتشار أدى إلى تغلغل فكر المعتزلة واقتناع البعض بأفكارهم .. ولعل واقعنا المعاصر ينبئ بهذه الحقيقة ، فهناك فئات بلغ اقتناعهم بهذا الفكر إلى حد الدفاع عنه وإعلان الحرب على ما عداه .. واتخذوا منه مطيه للتقول والطعن فيما هو معلوم من الدين بالضرورة .

والواجب يدعوني إلى السير في ركاب من سبقني من سلفنا من العلماء العاملين الذين أخذوا على عواتقهم تمحيص الفكر الاعتزالي ، ونقده انطلاقا من الميزان الحق القائم على الكتاب والسنة وبيان الحق في هذا الفكر : له أو عليه ، وليس من شك في أن تقويم الفكر وفق هذا المنهج هو أهدى سبيلاً وأقوم طريقاً لا نجد فيه عوجا ولا أمتا (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[سورة الأنعام : ١٥٣]

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) [سورة الزمر : ٥٥] .

والقارئ لما كتب عنهم يرى أن الكثيرين من الذين درسوا فكر الاعتزال في غالب أمرهم لا يخرجون عن اثنين : إما محب غال ، يقبل الفكر كما هو ، ويدافع عنه ، ولا يعرف دين الله إلا من خلاله ، ويرى ما عداه باطلا فاسدا .

وإما : ماقت قال لا يرى فى الفكر الاعتزالى إلا كل باطل وضلال .

وكلا الإثنين على خطأ فالفكر الاعتزالى فيه من الحق مثل ما فيه من الباطل ، وللمعتزلة أياد طيبة تحسب لهم كما لهم كذلك أخطاؤهم وعيوبهم . و تسوّغ لنا كثرة أخطائهم ، أن نمحو كل أثر طيب لهم ولو كان قليلاً . فإن الحق أحق أن يتبع ، وليس من الحق أن ننكر حسنات لإنسان مهما كانت قليلة والله تعالى يقول (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) [سورة الزلزلة : ٧ ، ٨] .

وحسبى أننى قمت بهذه الدراسة دون تعصب ، ولا ميل لى إلا إلى الإنصاف والحق ، ولا اعتماد إلا على الله وحده ، ولا اقتداء واهتداء إلا بكتابه وسنة نبيه ونيتى وهدفى : أن ما كان حقا وجب إتباعه ونصرته والدفاع عنه ، وما كان غير ذلك وجب نبذه ودحضه وبيان زيفه والتحذير منه أمرا بمعروف ، ونهيا عن منكر ، وطاعة لله ورسوله .

أدعو الله أن أكون قد وفقت فيما قصدت... فما كان صوابا فمنه سبحانه وما كان خطأ فمن نفسى .. والله حسبى وهو نعم المولى ونعم النصير .. وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

د / أحمد عبد الله الطيار ،،

نشأة المعتزلة

كثير من الباحثين فى دراسة تاريخ الفرق – قديما وحديثا – يحولون فى ظهور المعتزلة ونشاتهم على يد مؤسسها واصل بن عطاء الغزال فى بداية القرن الثانى الهجرى ..

وجلّ اعتماد هؤلاء الباحثين فى تاريخ الفرق على الموقف المشهور بين واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصرى حين احتدم الجدل فى هذا العصر حول مرتكب الكبيرة :

والموقف ذكره الشهرستانى والاسفراييني والبغدادى وغيرهم ممن تناول المعتزلة بالبحث والدراسة هكذا :

" دخل رجل على الحسن البصرى فى حلقته التى كان يعلمّ فيها المسلمين ويرشدهم ويفتيهم فيما يشغلهم من قضايا فى الدين – قال الرجل يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به من الملة .. وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان – بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان – ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا فى ذلك اعتقادا ؟؟ ففكر الحسن البصرى فى ذلك وقبل أن يجيب ، قال واصل بين عطاء ! – وكان من تلاميذه النجباء – أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ، ولا كافر مطلقا ، بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر .

ثم قام واعتزل – مجلس أستاذه – إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن – قولته المشهورة – اعتزل عنا واصل ، فسمى هو وأصحابه معتزلة " .

وانضم إليه في ذلك عمرو بن عبيد وبعض الناس فقيل لهم ولأتباعهم معتزلة (١) ، لاعتزالهم رأى الأمة فى دعواهم أن الفاسق من أمة الإسلام لا هو مؤمن ولا كافر (٢) .

وهذا الموقف يحدد – تحديدا دقيقا – زمن ظهور المعتزلة فى السنوات الأولى من القرن الثانى الهجرى فواصل ولد سنة ٨١هـ " إحدى وثمانين " وتوفى أستاذه الحسن البصرى سنة ١١٠هـ وهذا الموقف – أيضا– يبين أن الظهور الرسمى للمعتزلة كفرقة كلامية واضحة المعالم فى اتجاهاتها وارائها بدأت فى النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، ثم تطورت فيما بعد .

وهناك أسماء أخرى أطلقت عليهم من مخالفيهم مع تطور الفكر الاعتزالى وتعدد الأراء الخاصة بهم .. وهى أسماء لم تلق ارتياحاً وقبولا منهم .. فأطلق عليهم :

* مجوس الأمة : لشبههم فى القول بالثنوية – يعنى ثنوية الخير والشر والنور والظلام .

ولقولهم بوجود خالقين – الله تعالى – خالق كل شئ ما عدا أفعال العباد ، والعباد هم خالقوا أفعالهم وليس الله سبحانه وتعالى ، فأضحى بذلك فى الوجود خالقان ، وذلك جعل المعتزلة أشبه بالمجوس القائلين بخالقين : " أهرمن " خالق النور والخير ، و " يزدادن " خالق الظلام والشر .

* الوعيدية : أطلق عليهم ذلك الاسم – مع أن جميع الفرق تقول بالوعد والوعيد ، بل جميع المسلمين يقولون به ، والقرآن المجيد قد

(١) انظر الملل والنحل : ١ / ٤٧ – ٤٨ للشهرستانى .
(٢) راجع البغدادى : الفرق بين الفرق : /١٢ .

اشتمل على الأمرين – وذلك لقولهم بوجوب تنفيذ الله تعالى وعده ووعيده وأنه يجب عليه سبحانه إيقاع الأمرين تماما على ما "وعد " و " أوعد " وأنه لا يجوز أن يخلف وعده او وعيده ، ولا يملك ذلك – عياذا بالله – وذلك على عكس العقيدة الصحيحة لأهل السنة والجماعة ، حيث يعتقدون أن الله سبحانه لا يجب عليه شئ ، بل هو فعال لما يريد ، له المشيئة التامة ، والإرادة المطلقة ، لذلك كانت عقيدة أهل السنة والسلف، أن الله تعالى لا يجب عليه شئ ، فإذا شاء سبحانه أدخل الطائع النار ، وأدخل العاصي الجنة ، ولا اعتراض لأحد على مشيئته وإرادته ، لكنا نؤمن بأن الله تعالى لا يفعل ذلك ، ليس لأنه يجب عليه شئ بل لأنه عز وجل قد أخبرنا بأنه حق لا ريب فيه .. ونحن نؤمن كذلك أن الله تعالى يحقق وعده لأنه سبحانه أخبرنا بأنه : " لا يخلف الميعاد " وأنه سبحانه قد يحقق وعيده ، وقد يعفو عن العاصي فلا يحقق وعيده رحمة ولطفا ، لأن الكريم لا يخلف وعده ، بل يحققه ، ولكنه قد يخلف وعيده رحمة وعفوا ولطفا . هذه عقيدتنا نحن – أهل السنة والجماعة – وذلك على عكس " الوعيدية " المعتزلة الذين يوجبون على الله عز وجل إنفاذ الوعد والوعيد .

* المعطلة : لنفيهم وتعطيلهم صفات الله خوفا من الوقوع فى الشرك والتشبيه أو التعدد والكثرة .

* القدرية : لقولهم بخلق العباد لأفعالهم بعيدا عن الله سبحانه بقدرة أودعها الله تعالى فيهم .

* المفنية : لقولهم بفناء الجنة والنار وانتهاء النعيم والعذاب فيها .

وغير ذلك من المسميات المنبثقة من أرائهم ومعتقداتهم (١)

---

(١) يراجع فى ذلك " المعتزلة " د / هدى جار الله – ٤٠٥ وما بعدها .

على أن ثمة مباحث حول أسم " المعتزلة " :

ما المراد بهذا الإسم ؟

وعلى من أطلق ؟ واول من أطلقه ؟

أما المراد بلفظ " المعتزلة " فهو الاعتزال ، والانتباذ ، والابتعاد ، وقد يراد به أيضا : الرفض . يستوى فى ذلك أن يكون الاعتزال والرفض معنويا عقديا . كاعتزال واصل بن عطاء رحمه الله وأتباعه عقيدة الحسن البصرى فى مرتكب الكبيرة ، ثم ما تفرع لهم بعد ذلك من عقائد ، فهذا اعتزال معنوى عقدى ، وهو رفض ونبذ لعقائد الحسن ثم أهل السنة .

او أن يكون الاعتزال ماديا مكانيا أخذا من اعتزال واصل بن عطاء رحمه الله حلقة الحسن والابتعاد عنه ، وإنشاء حلقة خاصة به .

ثم هل هناك علاقة بين المعتزلة كفرقة والذين اعتزلوا الفتنة أيام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومعاوية رضى الله عنهما ؟؟

حاول بعض الباحثين ان يربط بين الفرقة الكلامية ومن اعتزل الفتنة التى وقعت فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومن خلال مصادر تاريخ الفرق يمكن العثور على العلاقة الا عية بين الاعتزال كفرقة ، وبين الاعتزال أيام الفتنة خشية الوقوع فيها وان كان وجه الشبه لفظى – فى رأيى – حتى وإن كان للمعتزله – فيما بعد – رأى فى الاحداث الجسيمة قبل نشأة المعتزلة وعلى سبيل المثال يذكر الطبرى فى تاريخه واقعة فيها اعتزال قوم الفتنة يقول الطبرى : (لما رجع الأحنف بن قيس من عند على لقيه هلال بن وكيع وقال : ما رأيك؟ قال : الاعتزال ، فما رأيك ؟ قال : مكاتفة أم المؤمنين عائشة رضى الله

عنها أفتدعنا وأنت سيدنا؟ قال : إنما أكون سيدكم غدا إذا قتلت وبقيت ، فقال هلال : هذا وأنت شيخنا ، فقال : أن الشيخ المعصى وأنت الشاب المطاع ، فاتبعت بنوسعد الأحنف بن قيس فاعتزل بهم إلى وادى السباع(١).

واللفظ فى دلالته اللغوية يعنى الابتعاد والتنحى والانفصال ؛ لكن ستعمل هنا فى الإبتعاد عن الطرفين المتحاربين سواء فى موقعة الجمل أو صفين ، ولسنا بصدد البحث التاريخى حولهما .

ويذكر السائر فى ، والنزبختى : أن أول ما وقع اسم الاعتزال : أيام أمير المؤمنين على بن أبى طالب – كرم الله وجه ورضى الله عنه حين اعتزل عنه جماعة : مثل سعد بن مالك وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة الانصارى وأسامة بن زيد مولى رسول الله (ﷺ) .. ثم بعد ذلك الأحنف بن قيس وغيرهم ..(٢) ممن اعتزلوا الوقوع فى الفتنة والدخول فى الحرب ضد على أو معه ، بعد دخولهم فى بيعته والرضا به ، وهؤلاء سموا بالمعتزلة ، وصاروا أسلاف المعتزلة إلى الابد(٣) .

وفى هذا الرأى خلط بين معتزلة الفتنة والسياسة ، وبين المعتزلة كفرقة وطائفة ، وان كان اللفظ – المعتزلة – قد أطلق عليهما جميعا ، لكن الفرق بعيد بينهما .

نعم : هناك من يحاول أن يربط بين معتزلة الفتنة ومعتزلة واصل بن عطاء ، ويجعل الأخيرة امتداداً لهم .. وهذا ما يحاول أن يؤصل له " الملطى" فى كتابه " التنبيه والرد " .

---

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٥٠٤/٤ .

(٢) انظر الغلو والفرق الغالية : عبد الله السامرائى – ٢٢٧ ، وانظر فرق الشيعة للنوبختى .

(٣) المصدر السابق .

فيقول واصفا المعتزلة متحدثا عهم .." هم أرباب الكلام وأصحاب الجدل والتمييز والنظر والاستنباط والحجج على من خالفهم ، وأنواع الكلام ، والمفرقون بين علم السمع وعلم العقل ، والمنصفون فى مناظرة الخصوم .. وسموا أنفسهم معتزلة وذلك عندما بايع الحسن بن على رضى الله عنه معاوية وسلم إليه الأمر ، لزموا منازلهم ومساجدهم وقالوا نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة " (١)

ومن رأينا :

أنه ليست هناك أدنى مناسبة فكرية بين هؤلاء وأولئك . ولعل الرجل أراد أنهم " سموا أنفسهم " بذلك الاسم الشريف المبارك الذى اختارته لنفسها طائفة من صحابة رسول الله (ﷺ) حينما اعتزلوا فريقى الفتنة . أو أطلق عليهم .

والاسم يشرف بالمسمى . لذلك كان ذلك الاسم شريفا حين انتمى إلى جماعة من الصحابة لقى رسول الله (ﷺ) ربه وهو راض عنهم .

نقول : لعل " الملطى " أراد أن معتزلة الكلام أخذوا الاسم عن معتزلة الفتنة .

أما الزعم بأن ثمة مناسبة بين الفريقين سوى مجرد التسمية ، فزعم باطل بكل المقاييس ، قال به " الملطى " أو " القبرصى " أو غيرهما .

هكذا يحاول البعض أن يجعل معتزلة الفتنة من الصحابة ومعتزلة واصل بن عطاء وأتباعه كأنهما فرقة واحدة .. أو حتى إيجاد

---

(١) التنبيه والرد : ٣٥ ، ٣٦ .

علاقة بينهما وأنا أرى أن محاولة إيجاد مثل هذه العلاقة مناف للحقيقة لعدة أمور أوجزها فيما يلى :

١ – أن الصحابة الأجلاء اعتزلوا الفتنة خوفا من الوقوع فى الإثم ، أما معتزلة واصل فاعتزلوا الحق لأنه لا يتفق مع مبادئهم وأسس مذهبهم .

٢ – لا يمكن التسوية بين الأجلاء من الصحابة مثل عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص وأسامة بن زيد رضى الله عنهم جميعا ، وبين تلاميذة واصل ومن معه كالنظام وعمرو بن عبيد وغيرهم .

٣ – أن الذين حاربوا مع الإمام رضى الله عنهم كانوا مع النص والذين اعتزلوا كذلك كانوا مع النص وكلاً وعد الله الحسنى – رضى الله عن الجميع وأرضاهم ، أما معتزلة المذهب فقد ردوا كثيرا من النصوص، وأدلوا كثيرا منها كذلك .

٤ – كان اعتزال الأجلة من الصحابة رضوان الله عليهم مبنيا على اجتهادهم في فهم نصوص السنة النبوية التى جاءت بها الأحاديث فى الصحاح ، والتى تحض الأمة على تجنب الفتنة ، والابتعاد عنها ، وهى المشهورة بأحاديث الفتن ، وكان هذا اجتهادا منهم ، قد يكون هناك من يخالفهم فيه ، لكنه اجتهاد محمود من حيث هدفه ، وهو التزام النص النبوى الصحيح . بخلاف ما نجده فى فكر المعتزلة وموقفهم من النصوص الحديثة .

ولا أدل على ذلك من اجترار الآثار البغيضة التى نتجرع مرارتها الآن من جراء هذا الفكر المتحرف الذى جر على الأمة ويلات مازالت ترسف فى أغلالها ... والواقع أصدق أنباء من أى كلام .. فدعاة العقلانية ينفثون سموم أفكارهم ليل نهار ويجدون آذانا صاغية من أذنابهم ،

والطاعنون فى احكام القرآن الكريم النافون للسنة يمرحون ويغدون ويروحون لبث ما هم به مقتنعون دون محاسبة .. وإذا اعترض معترض تكال له الاتهامات بالجمود تارة وإعاقة حرية العقل أخرى والإنغلاق الفكرى ثالثة .. وهكذا دواليك !

وهؤلاء المستغربين الذين بين أظهرنا - نتاج طبيعى لفكر المعتزلة المقدم للعقل على النص ، القائلين بالحسن والقبح العقليين مثلما هم نتاج للعقلانية الغربية .

فهل نسوى بين اتباع الحق والذين فى قلوبهم زيغ ؟؟

وفى رأيى أنه من الخطأ على الفكر الإسلامى الأصيل أن نقحم عليه الفكر الاعتزالى لإيجاد علاقة مشبوهة لا أساس لها بل الحق ينفيها ولا يقبلها ، ليس من الأصوب والأزكى لذوى هذا الفكر أن يؤوبوا للحق ويذعنوا له بدلا من إيجاد أسباب الفرقة التى قادت المسلمين إلى شر مستطير ؟؟ ومن هنا فالعلاقة منفية من كل جوانبها ، ولا يوجد أدنى نسب أو شبه بين من اعتزلوا مزالق النفس ، ومن سار مع الهوى فى كل منعرج .

يذكر البغدادى فى هذا الصدد " وكان واصل من مرتادى مجلس الحسن فى زمان فتنة الازارقة ، وكان الناس يومئذ مختلفين فى أصحاب الذنوب من أمة الإسلام على فرق ، فرقة تزعم أن كل مرتكب لذنب صغير أو كبير مشرك بالله ، وكان هذا قول الأزارقة من الخوارج ، وزعم هؤلاء أن أطفال المشركين مشركون ، ولذلك استحلوا قتل أطفال مخالفيهم ، وقتل نسائهم سواء كانوا من أمة الإسلام أو من غيرهم ، لما ظهرت فتنة الأزارقة بالبصرة والأهواز ، واختلف الناس عند ذلك فى أصحاب الذنوب ، خرج واصل بن عطاء عن قول الفرق المتقدمة وزعم أن الفاسق فى هذه الامة لا مؤمن ولا كافر ، وجعل الفسق منزلة بين منزلتى الكفر والإيمان (١)

---

(١) البغدادى : الفرق بين الفرق - ٩٧ .

ومرتكب الكبيرة عندهم إن لم يتب يكون ماله المحتوم ما توعده به الله من العذاب وليس لذلك الوعيد أن يتخلف بحال من الأحوال كما أن الوعد بالثواب لا يتخلف (١) .

ومن الملاحظ فى هذا الصدد تلك النزعة العقلانية المتغلبة على فكر القوم واتجاهاتهم والتى نمت وتطورت بعد أن وجدت معينها فى الفكر اليونانى الدخيل فيما بعد .

فقد كانوا يقدمون الأفكار بطريقة عقلية فلسفية لتمرسهم على هذا الأسلوب ... ومن هنا اضطر المعتزلة إلى سلوك هذا الطريق لتقديم أفكارهم ومبادئهم .. مع من عارضهم – ولذا كانت النزعة الفلسفية العقلية من أبرز سماتهم .

وقد كان لهذه النزعة تأثير كبير على كثير من آرائهم التى انفردوا بها وأوقعتهم فى تطرف فكرى وانحرف عقدى .

كنفى القدر فى أفعال العباد والقول بخلق القرآن .. ونفى رؤية الله وهذا كله مبين فى موضعه من هذه الدراسة .

ومما تقدم .. أخلص إلى القول بالنفى المطلق بين وجود أية علاقة بين المعتزلة كفرقة كلامية وبين الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة . وهذا ما تطمئن إليه النفس .

أيضا .. تأثر المعتزلة بالفلسفة والمنطق اليونانيين كان لهما الأثر الكبير فى تطور أفكارهم وعرض مبادئهم .

هذه كلمه موجزة عن نشأة المعتزلة وظروف هذه النشأة وعلى الصفحات التالية إلقاء الضوء على أهم قضايا الفكر المعتزلى.

---

(١) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة – ١٣٤ .

" أصول المعتزلة "

يقوم مذهب الاعتزال على أصول كثيرة ويثير قضايا مختلفة ولكن المؤرخين للمذهب يجمعون مبادئ الاعتزال ويحصرونها في خمسة أصول تحديدا . وقبل أن ندخل فى شرح هذه الأصول ننبه إلى ثلاثة أمور:

الأمر الأول : أن هذه الأصول الخمسة وما يندرج تحتها من قضايا لم تتوفر للمذهب ، ولم تتبلور جملة واحدة ، ولم يقل بها مؤسس المذهب منذ بداية نشأته . ولكن المؤسس واصل بن عطاء وضع بعضها واهمها هو القول بالمنزلة بين المنزلتين ، ثم أضاف إليها من جاء بعده من شيوخ المذهب حتى اكتملت مبادئ المذهب وأصوله التى يقوم عليها فى صورتها النهائية التى اطلق عليها العلماء مصطلح : " الأصول الخمسة " .

الأمر الثانى : أن هذه الأصول الخمسة هى مبادئ المذهب وأصوله التى يقوم عليها ويعرف بها وتجمع قضاياه فى إطارها : ومن هنا فقد اتفق علماء الكلام ومؤرخو الفرق أنه لا يصح أن يوصف أحد بأنه على مذهب الاعتزال او أنه معتزلى إلا إذا جمع الاعتقاد بهذه الأصول جميعها ، فكل من اعتقد هذه الأصول جميعها فهو من المعتزلة ، أما من أنكرها جميعها ، أو اعتقد شيئا منها دون شئ ، أو من أنكر أصلاً من أصولها ولو اعتقد الاربعة الأخرى فليس من المعتزلة ، ولا يصدق عليه وصف الاعتزال .

الأمر الثالث : أن هذه الأصول الخمسة هى أصول المذهب وأسسه ومبادئه ، التى اجتمع عليها أقطاب المذهب وشيوخه ، وتابعهم علي ذلك كافة المعتزلة ، ولكن ثمة مبادئ أخرى تتصل بهذه الأصول ، لا تمثل شئ منها أصلا سادسا ، ولا يضيف إلى الخمسة أساسا آخر ، لكنها مبادئ وشروح تتصل ببعض هذه الأصول الخمسة . وهذه المبادئ

المتفرعة عن الخمسة الأصول لا تمثل إلزاما لجمهرة المعتزلة ، ولا تحسب على المذهب جملة ، ولكنها تخص أصحابها والقائلين بها ومن يتابعهم فيها، ولذلك نرى كثيرا من المبادئ التى قال بها بعض أتباع المذهب مثل : الخياط ، والعلاف ، والنظام وأبى هاشم ، وهؤلاء ينشئون أفكارا لا تلزم المذهب بل إن جمهرة شيوخ المذهب ينكرونها جملة أو ينكرون الكثير منها. ويتضح هذا من موقف شيخ المعتزلة المنظّر للمذهب : القاضى عبد الجبار ، الذى لم يقبل الكثير مما قال به هؤلاء ، بل رفضه ونعى عليه .

أصول المذهب

أما أصول المذهب فتتمثل فيما يلى :

١ – التوحيد .

٢- العدل . وهم يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد .

٣ – المنزلة بين المنزلتين .

٤ – الوعد والوعيد .

٥ – الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . (١)

وهذا الأصول – فى نظرهم – لا يزاد عليها ولا ينقص منها ، فمن أنقص منها أو زاد عليها لا يعترف باعتزاله ولا ينتسب إليهم وأعلن هذا صراحة أحد أقطابهم وهو أبو الحسن الخياط بقوله : "وليس يستحق أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة " (٢) .

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١ / ٢٢٨ .

(٢) البلخى : ت ٣١٩ – فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة : ١٧ .

فمن لم يعتقد التوحيد والعدل فلا يمكن أن يوصف بالاعتزال حتى وإن قال بأصل " المنزلة بين المنزلتين وبقية الأصول الخمسة ، ومن انتفى عنهم اسم الاعتزال لأنهم لم يقولوا بالتوحيد والعد كما ذكر أبو القاسم البلخي : ضرار بن عمرو وأصحابه ، لأنهم لم يؤمنوا بالتوحيد والعدل ، وإن قالوا بالمنزلة بين المنزلتين .

وأما كون هذه المبادئ قد صدرت عن أصول فلسفية متأثرة بالفلسفة اليونانية أو المسيحية كما يقول ديبور وغيره غير صحيح لأن هذه المبادئ قد تم بلورتها قبل الترجمة : أعني ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية ففكر المعتزلة فيها أسبق تاريخيا وأما قول الشهرستاني وغيره بتأثر العلاف والنظام ومن أتى بعدهما بالفكر اليوناني فصحيح لكنه تأثر في تطور الفكر إبان نشأته .

ويرى البعض أن المتأمل في هذه الأصول وما ينبثق منها يجد أنها لم تصدر عن مبادئ إسلامية خالصة .. وإنما الكثير منها صدر عن تأثر بمذاهب وفلسفات يونانية (١) .

ويستدل هؤلاء بأن كثيرا من كتب الفرق المعتمدة والمعتبرة تطالعنا بهذه التأثيرات غير الإسلامية أثناء الكلام عن بعض مبادئ المعتزلة أو تحليل أفكارهم .

ولا أدل على ذلك من تكرار مثل هذا عند مؤرخي الفرق - سبيل المثال - ما ذكره الشهرستاني والبغدادي والأشعري ..

يقول الأشعري : وقد أخذ العلاف عن أرسطو طاليس " (٢)

---

(١) انظر " أدب المعتزلة " عبد الحليم بليغ - ١٢٣ .

(٢) مقالات الإسلاميين : ٢ / ٢٨٨ .

ويقول فى تعليقة له : وهذا قول أخذوه عن إخوانهم من المتفلسفة " يقول والشهرستانى عن العلاف : قد طالع كثيرا من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة .. وبقوله أيضا " اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة " (١) .

وكل من طالع التراث الاعتزالى من القدامى والمحدثين بتجرد وبعد عن أى مؤثر اثبت أن كثيرا من افكارهم وآرائهم إنما صدر عن تأثر بفلسفات لا تتفق أبدا مع الإيمان واسسه ، وقد ذكر البغدادى تأثر النظام- وهو أحد مشاهيرهم- بأناس من ملاحدة الفلسفة بسبب مخالطته لهم فى كبره .. وتأثر كذلك بالروافض لأنه خالط هشام بن الحكم الرافضى.. وكذا البراهمية لم يسلم النظام من التأثر بهم فى إبطالهم وإنكارهم النبوات . (٢) ويستدلون كذلك بما أثبته القدامى من تأثر المعتزلة بالتيارات والأفكار الفلسفية من غير المسلمين . حيث أثبتها كثير من الدارسين الغربيين لفكر المعتزلة فعلى سبيل المثال أثبت " فون كريم " تأثر المعتزلة فى النشأة باللاهوت اليونانى .. كذلك " ستينر " ذكر تأثرهم فى آخر تطوراتهم بالفلسفة اليونانية .. و" دى بور " يذكر أنهم تأثروا بعوامل نصرانية أبلغ التأثير .

وهذا القول فيه ظلم كبير للمعتزلة ، وفيه تجن عليهم فى جوانب كثيرة ، فإن مؤسس المذهب لم تكن له صلة لا باليونانية ولا النصرانية ولا البراهمية .

ومن ثمّ فإن العجب يأخذنا حين يقال إن أسس المذهب تأثرت باليونانية والبراهمية ، والنصرانية وغير ذلك .

فأى أساس هذا الذى تأثر به هؤلاء ؟ هل هو قولهم بالتوحيد وتشددهم فيه إلى حد إنكار الصفات ؟

(١) الملل والنحل : ١ / ٥٠ ، ٥٣ .

(٢) راجع البغدادى : الفرق بين الفرق : ١٣١ .

وكيف ذلك والنصرانية والبراهمية مثلثة ، واليونان وثنيون ... النهى عن المنكر ؟ وهؤلاء جميعا لا يعرفون

نقول : لا جدال فى ان بعض المعتزلة ممن لهم صوت عال قد خلط بعض القضايا الفرعية بالفلسفة مثل العلاف والنظام والخياط .

إذن فكل ما قيل إنما هو خاص ببعض شذاذ الفكر ، وفاسدى العقيدة ممن ينتسبون إلى المعتزلة ، وعامة المعتزلة يبرأون منهم ولا يرضون فكرهم .

وهؤلاء جماعة معروفة بشذوذهم عن سواء السبيل ، مثل العلاف والنظام والخياط ، والجاحظ .

والدليل على أن كلام هؤلاء الشذاذ لا يحسب على المعتزلة ، ولا يؤاخذ به جمهورهم أمران :

الأول : أن كلام هؤلاء وأفكارهم التى ابتدعوها والتى تبعده عن افكار جمهرة أصحاب المذهب لم يعتبرها المتكلمون ولا مؤرخو الفرق من مذهب الاعتزال . بل اعتبروها خاصة بأصحابها ، ومن ثم كانت هذه الآراء محصورة فى مذاهب خاصة نسبت لأصحابها صراحة ، ولم تنسب إلى المعتزلة . ذلك كمذهب : " النظامية " و "الخياطية " و " البهشمية"، نسبة إلى النظام والخياط وأبو هاشم

الثاني : أن المؤرخين للاعتزال الثابتين على أصوله ، الشارحين لتلك الأصول ، نقدوا أفكار هؤلاء ورفضوها ، لذلك كان ظلما إحتساب الشذاذ على المذهب ثم إن مشكلة المعتزلة تكمن فى أن اعتمادهم العقل جذب إليهم الكثيرين من الخارجين وشذاذ الفكر وفاسدى العقيدة . وكلهم عبروا عما يريدون وروجوا عن أحقادهم تحت ستار إعمال العقل .

أما عامة المعتزلة بدءا من المؤسس الذى اشتهر بزهده ودينه والتزامه ، فهم على دين الإسلام ، وإن شذوا فى شئ فقد كانوا متأولين حرصا منهم على تنزيه الله تعالى . وإن صحت نياتهم وضلت طرقهم ن فهم على جبهة الإسلام ، ويخفف من انحرافهم صدق نواياهم . وهم فى إطار الحكمة التى أطلقها على بن أبى طالب رضى الله عنه حينما أوصى أصحابه بالخوارج رغم ما كان بينه وبينهم حيث قال : إنهم يطلبون الحق ويخطئون ، وليس من طلب الحق فأخطاه ، كمن طلب الباطل فأصابه "

أما عن كتابات " الدارسين غير المسلمين " عن المعتزلة فجلها – إن لم يكن كلها – كتابات مغرضة ضالة صدرت عن حقد على الإسلام والمسلمين . وما ينبغى أن نأخذ كتاباتهم قضايا مسلمة

ويذكر " هاملتون " أن المعتزلة كانوا يصبون عقائدهم فى قوالب الأفكار اليونانية " ويستوحون تأملاتهم الدينية من الميتافيزيقا اليونانية بدلا من القرآن .. (١).

وبعد هذه المقدمة اليسيرة نسلط الأضواء على أصولهم التى أصلوا لها وجعلوها أسسا لمذهبهم وفكرهم .

* أصل التوحيد :

يعبر القاضى عبد الجبار عن هذا الأصل – التوحيد – بقوله هو " العلم بأن الله تعالى واحد لا شريك غيره فيما يستحق من الصفات نفيا وإثباتا على الحد الذى يستحقه والإقرار به " (٢) وهذا الحد الذى يستحقه هو عندهم التنزيه المطلق للذات الإلهية ونفى المثل والشريك بجميع وجوهه : المادية ، كما كان لدى المشركين بمكة قبل البعثة وعند

---

(١) انظر -- أدب المعتزلة : لمزيد من هذه الحقائق : ١٢٢ –١٢٤ ، ١٤١–١٤٢ .

(٢) القاضى عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة – ١٢٨ .

جميع الوثنين الماديين فى كل مكان ، والمعنوية على اى وجه يمكن تخيله أو توهمه . ومن منطلق هذا التنزيه ظهر لدى المعتزلة مباحث كثيرة تتعلق بهذا الاصل .. ومن هذه المباحث : ما يتعلق بصفات الله سبحانه ، حيث أنكروها وعطلوا الذات عن صفاتها ، وذلك ظنا منهم أن القول بالصفات القديمة يؤدى إلى تعدد القدماء .

وهم في ذلك مذهبان فى الظاهر لكن الحقيقة أن قال المذهبين واحد : أما المذهب الاول : فيرى إنكار الصفات تماما حيث يقول هؤلاء : " إن الله تعالى عليم بذاته لا يعلم ، قدير بذاته لا بقدرة سميع بذاته لا يسمع، وهكذا وأما المذهب الثانى فيثبت لله تعالى صفات ولكنها فى نظرهم عين الذات ويفهمون من قوله تعالى : " ولا يحيطون بشئ من علمه " أن لعلم مضاف إلى الله تعالى والمضاف غير المضاف إليه . ومن ثم فقد أثبتوا الصفة ، لكنهم أنكروها فى النهاية ، بقولهم : إن الله عليم بعلم وعلمه ذاته - سميع بسمع وسمعه ذاته .. وهكذا ومن ثم كان مآل المذهبين واحد فى كون الصفات ليست شيئا زائدا على الذات ، وتعطيل الذات عن صفاتها بزعم أن إثبات الصفات يؤدى إلى تعدد القدماء ، وهو زعم باطل، لأن التعدد إنما يلزم من القول بذوات متعددة ، لامن القول بذات واحدة وصفات كثيرة أو متعددة ، والصفات لا تشكل مع الذات تعددا أو كثرة .

كما اننا لا نعلم على الراى الثانى: كيف تكون الصفة عين الموصوف ؟ اليس فى ذلك خلط بين الحقائق : أن تصبح الصفة موصوفا ، أو الموصوف صفة ، أو ينشا عنهما شئ ثالث ؟!!

إن القول بالتجريد أو التعطيل - تعطيل الذات عن الصفات - قد ادى بهم إلى أغلاط خطيرة منها إنكار رؤية الله تعالى فى الآخرة مع ورود النصوص بذلك والى القول بخلق القرآن وغيرها .. ولشدة تعلقهم بهذا الاصل - التوحيد - أطلقوا على أنفسهم " أهل التوحيد " وواضح

أنهم سموا بذلك اعتمادا على نفيهم الصفات ، وتعطيل الله عز وجل عنها. وقد اتهموا الصفاتية - مثبتى الصفات - بأنهم ليسوا من أهل التوحيد حيث أثبتوا الصفات وهى قديمة فنشأ عن ذلك تعدد القدماء يعنون : الله تعالى وصفاته .. ولأن أخص خصائص الألوهية عندهم هو " القدم " فلما كانت الصفات غير الذات ، وكانت قديمة كان القدماء كثيرون فنشأ عن ذلك أن الله ليس واحدا ، بل كثير وقد قال المعتزلة للأشاعرة أنتم كفرتم النصارى لأنهم أثبتوا ثلاثة قدماء ، بينما أنتم اثبتم قرابة العشرين قديما ، فأنتم أولى بهذا الوصف من النصارى .

وقد ركزوا جهدهم لتثبيت وتركيز حقيقة التوحيد فى النفوس واتخذوا لذلك كافة الوسائل والأساليب التى تحقق هدفهم .

وهكذا انتهى المعتزلة إلى القول بوحدة الذات ونفى الصفات وأن الصفات هى عين الذات واعتبروا أن الله عالم بذاته قادر بذاته حى بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة هى صفات قديمة ، ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الإلهية (١) .

ومن صور الإنحراف المترتبة على رأيهم فى التوحيد ما يأتى :

١ - نفى الصفات :

وهم فيه يقلدون الفلاسفة الذين يذهبون إلى القول : بأن الله تعالى واحد وحدة مطلقة والواحد وحدة مطلقة لا يعتريه التعدد أو الكثرة بوجه من الوجوه ، وإلا لم يكن واحدا ، والقول بالصفات يلزمه التعدد فى زعمهم لا سيما على القول بثبوتها على أنها معان زائدة على الذات قائمة بها كما يقول الأشعرية وغيرهم .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل : ٤٤/١ .

وقد سار المعتزلة على نهجهم فى نفى الصفات مع الإختلاف فى نفيها مطلقا ، أو فى جعلها إضافات أو اعتبارات وقد ألزموا الأشاعرة بأنهم يقولون بقدماء لا بقديم واحد هو الذات أو الحقيقة الإلهية فقط . وهم لذلك أولى بالشرك من اليهود والنصارى .

وقد غفل هؤلاء أو تغافلوا عما ذهب إليه النصارى من القول بذوات متعددة ، لا بذات واحدة وصفات كثيرة أو متعددة وأن القول بالصفات الكثيرة أو المتعددة لا يشكل مع الذات الواحدة كثرة أو تعددا .

ومن ثم ذهبوا إلى التعطيل كما ذهب أسلافهم من الفلاسفة إلى التجريد . ولهذا أطلق عليهم اسم : المعطلة ، أو النفاة – كما تقدم – وقد غلا بعضهم فى هذا غلوًا بعيدا ، ومن أعظمهم مزيدا فى هذا الباب- كما يقول " الشهرستانى "معمر بن عباد السلمى .

ومن العجب ان يجعل هؤلاء من الصفات التىهى معانٍ فى ذاتا ، او من الذات معانٍ ، ويقولون أن الصفات هى عين الذات " فعلم الله هو الله ، وقدرته هي هو " (١) وهكذا – وهذا مالا يقول به عاقل فكيف تصبح الصفة عين الموصوف ؟! أو الموصوف عين الصفة ؟!

ومن قال منهم بأن الصفات هى عين الذات يفرق بين صفات الذات ، وصفات الأفعال : كالإرادة ، والحب والبغض والرضا والسخط .. الخ . فصفات الذات كالعلم والقدرة وغيرها لا يجوز أن يوصف البارى بأضدادها . ولا بالقدرة على أضدادها ، فالله عالم ، ولا يجوز أن يو ف بالجهل ، ولا بالقدرة على أن يجهل .. أما صفات الفعل فيجوز أن يوصف بأضدادها وبالقدرة على أضدادها . (٢)

---

(١) الملل والنحل : ١ /٦٥

(٢) البغدادى : الفرق بين الفرق /١٢٧ نقلا عن الأشعرى .

وهذا مسلم ، ولكن من بلاهة القول : أن يقال إن الله لا يقدر على أضداد صفات الذات وهو قول يوهم محدودية القدرة الإلهية ، ولكن إذا علمنا أن أضداد هذه الصفات مستحيل على الله تعالى وأن القدرة لا تتعلق بغير الممكن أدركنا استحالة تعلقها بالواجب أن المستحيل . فلماذا التنصيص عليه ؟ ومع القول بنفي الصفات نجد أحد زعمائهم وهو " ابو على الجبائى " يذهب إلى القول بجواز اشتقاق أسماء الله تعالى من أفعاله ، مع أن الأسماء توقيفية كما ذهب إليه جمهور العلماء ؟

ولهذا قال عنه " أبو الحسن الأشعرى " إن بدعتك هذه أشنع من ضلالة النصارى فى تسميه الله أبا لعيسى ابن مريم "(١)

وبهذا وضع المعتزلة أنفسهم فى جدل لا طائل من ورائه حول ذات الله تعالى وصفاته .

وصدق رسول الله (ﷺ) : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوقوا الجدل " (٢)

٢ – التأويل :

كان من الضرورى – وقد ذهب المعتزلة إلى القول بنفى الصفات الإلهية – أن يلجأوا إلى التأويل لجميع النصوص القرانية ، أو الحديثية التى تثبت الصفات الإلهية .

وهذا هو منهجهم لا بالنسبة لما يتعارض مع رأيهم فى الصفات فقط ، بل لكل ما يتعارض مع مبادئهم وأصولهم . فهم – كمؤمنين – يؤمنون قطعاً بكل ما جاء به القران الكريم ، إلا أنهم يحاولون دائما أن يوفقوا بين النص والعقل ليقينهم بأن النص لا يخالف العقل . إلا أن التوفيق دائما كان يأتى على حساب النص دون العقل وكان الواجب

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ١٩٥/٢/ .

(٢) ابن عبد البر : جامع بيان وفضله ١١٩/٢ .

العكس ، لأن العقل من شأنه أن يخطئ ويصيب ، فكان الأولى أن يراجع العقل نفسه .

بخلاف النص الذى يصيب ولا يخطئ ، لأنه وحى إلهى .

ولكن ثقة المعتزلة فى العقل وغلوهم فى شأنه دعاهم إلى أن يقفوا من النص إذا كان قرآنا أو سنة متواترة موقف التأويل له لكى يتفق مع أصولهم ومنطق عقولهم .

وإن كان خبر آحاد رُدّ وحكم بأن النبى لم يقله – كما سبق بيانه(١) .

والتأويل على قانون الإسلام – أمر لجأ إليه كثير من العلماء كالأشعرى والماتوريدية وغيرهم ، إلا أن الغلو فيه إلى درجة تحكيم العقل فى النقل أمر غير مسلم للمعتزلة ، بل هو أمر دخيل فى الإسلام مأخوذ عن اليهود والفلاسفة .

وهذا ما يؤكده علماء الفرق والمذاهب من أن المعتزلة " قد نبع تأثرهم فى نفى الصفات لله سبحانه مما قاله أنمتهم من المتفلسفة الذين يزعمون أن للعالم صانعا لم يزل ليس بعالم ولا قادر ولا حى .. حتى إن العلاف – من أبرز دعاتهم – نقل مقالة أرسطو طاليس عينها فى نفيه لصفات البارى تعالى " (٢)

وقد كان المعتزلة أو من استعان بالفلسفة اليونانية واستفادوا منها فى تأييد نزعاتهم ، فأقوال كثيرة من أقوال النظام أبى الهذيل العلاف ، والجاحظ وغيرهم .. بعضها نقل كلية من أقوال فلاسفة اليونان ، وبعضها يستقى من منبعه ، ويغترف من معينه بشئ من التحوير والتعديل " (٣)

---

(١) راجع فى موقف المعتزلة من التأويل : د / عبد الرحمن المواكبى : قضية التأويل فى الفكر الإسلامى

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلامية /٢ / ١٧٧ .

(٣) من مقدمة : للشيخ محيى الدين عبد الحميد : ١/ ٢٣ .

والذي نراه حقا في هذه القضية : هو الوقوف من النص موقف الراسخين في العلم كما ذكر القرآن الكريم (١) نصف الله تعالى بما وصف به نفسه دون خوض فيما تشابه علينا ، ونقف مع التفويض والتسليم .

وهذا هو الأسلم لنا والأحفظ لإيماننا وديننا من الزيغ والضلال والانحراف .

وهذا هو موقف السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان .

فالواجب في هذا الإيمان بما ثبت عن الرسول (ﷺ) فيصدق خبره.. ويطاع أمره .

فقوله تعالى " ليس كمثله شئ " محض لما ذهب إليه المشبهة ، وقوله " وهو السميع البصير " رد على المعطلة (٢)

وأختم بهذا الموقف الذي يظهر حقيقة ما يذهب إليه القوم من انحراف فكرى .

يذكر عن الجنيد أنه مر بقوم من المتكلمين فسأل من هؤلاء فقيل : قوم ينزهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث ، وسمات النقص ، فقال : نفي العيب حيث يستحيل العيب عيب (٣) ما أجلها من عبارة .. وما أسمى معناها على وجازتها .

٢ – خلق القرآن :

القرآن الكريم كلام الله رب العالمين ومع ذلك يرى المعتزلة أنه مخلوق وهو نفى لوجود أي قديم سوى الذات الإلهية .. ودفع لما كان يظهره

(١) انظر الآية (٧) من سورة آل عمران .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٨٣٧ .

(٣) انظر الملل والنحل : ١ /٤٥ والفرق بين الفرق : ١١٤ .

النصارى بين المسلمين من القول بقدم الكلام إثباتا لألوهية عيسى الذى هو كلمة الله القديمة .. ومن هنا تسربت عقيدة التعدد إلى المسلمين .

فالقديم الأزلى هو الله وحده .. وصفاته هى عين ذاته ومن هنا اتفقوا على أن القرآن مخلوق حادث فى محل (١) .

وهذا الافتراء الذى يقول به المعتزلة كسابقه له أصوله الوثنية فى الفلسفة اليونانية .. أو فى أساطير نصرانية أو يهودية .

يذكر الخطيب البغدادى أن بشر بن المريس وهو احد الكبار الذين روجوا لفرية خلق القرآن كان أبوه يهوديا صباغا بالكوفة .. ويذكر ابن الاثير أن اول من أذاع هذه البدعة ونشرها يهودي يسمى لبيد بن الأعصم ، وكان يقول بخلق التوراة فاخذ عنه مقالته ابن أخته طالوت ونسج على منوالها القول بخلق القرآن ، ويذكر ابن قتيبة أن اول من ابتدع بدعة القول بخلق القرآن المغيرة بن سعيد العجلى ، وكان من اتباع عبد الله بن سبأ اليهودى (٢) واذا كانت هذه الفكرة ملوثه بالافكار الوثنية فلا غرابة أن يرفضها علماء المسلمين الراسخون فى العلم الذين لم تلوث ثقافتهم الإسلامية .. ولم تتأثر بأى مؤثر خارجي .

ولا غرابة أن تكون هذه الفرية سببا مباشرا لمحنة قاسية وقع فيها كثير من أئمة المسلمين .. وحُملوا قسرا على القول بها فقال بها البعض ترخصا على عقيدة الإكراه ، وثبت الآخرين عزمة فذاقوا التعذيب الوانا حتى قضى بعضهم من شدة التعذيب ، وبقى الآخرون يعذبون محتملين محتسبين ، مثل الإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – .

" فحين استفحل امر المعتزلة وذاع أيام الخليفة المأمون حملوا الناس على القول بخلق القرآن ، وخالفهم الائمة من سلف هذه الامة

(١) سورة التوبة : الآية رقم : ٣٠ .

(٢) على وافى : اليهودية واليهودية – ٣٥ .

فاستحل المأمون أموالهم ودماءهم .. حتى إنه حمل الناس على هذا القول وإلا جردهم من حقوقهم (١)

أصل العدل :

هذا الأصل يريد به المعتزلة أن الله تعالى وأفعاله كلها حسنة وأنه لا يفعل القبيح ، ولا يخل بما هو واجب عليه (٢) وهذا الأصل يشتمل على كثير من المسائل أطلق عليها القاضي عبد الجبار اسم علوم العدل منها :

أ – نفى صدور القبيح عن الله تعالى .

ب – ثبوت اللطف الإلهي بعباده .

ج- نفى التكليف بما لا يطاق .

ومن أهم هذه المسائل مسألة حرية الإنسان فى افعاله فالمعتزلة يذهبون إلى القول بأن أفعال العباد ليست مخلوقة فيهم وإنما هم المحدثون لها (٣) .

ومن ثم فهم مخيرون بين الفعل والترك .. وعلاقة هذه المسالة بالعدل ان الله سبحانه كلف عباده بأعمال ، ووعد المطيع بالثواب وتوعد العاصي بالعقاب .

وإذا كان الإيمان بعدل الله من أسس الدين عند المسلمين جميعا إلا أن المعتزلة جاوزوا الحد .. وبلغ بهم الشطط الفكرى ساؤا بعيدا حول هذا المبدأ .

(١) يراجع فى ذلك : منهاج السنة النبوية : لابن تيمية : ١٦٩/٢ ومقدمة ابن خلدون ٨٢٣ . وموقف المأمون من هذه البدعة .

(٢) شرح الأصول الخمسة : للقاضي عبد الجبار .

(٣) المصدر السابق : ٣٢٣ .

فمن شططهم وغلوهم الزعم بأن الله يسوى بين المؤمنين والكافرين فى الولاية . حتى قال أحدهم وهو أبو سهل بشر بن المعتمر : كما ذكر البغدادى " إن الله تعالى ما والى مؤمنا فى حال إيمانه ، ولا عادى كافر فى حال كفره " (١) .

واودي بهم إلى عدم الفهم الصحيح وجافاه الثابت من القرآن والسنة .. وقادهم إلى ما يلى : -

أ – نفى القدر : -

ونفاة القدر نوعان :

١ – القدرية الأولى وهم نفاه القدر جملة . وهم الذين تبرأ منهم ابن عمر – رضى الله عنه –

٢- نفاة القدر الثانية وهم نفاة قدرة الله – تعالى – فى أفعال العباد والمراد بهم المعتزلة ، ويقال لهم القدرية الثانية .

وحتى يكون الله عدلا – فى نظرهم – جعلوا الإنسان خالقا لأفعاله – خيرها وشرها – كامل الحرية والاستقلال فى اختياره ، فالإنسان بما أودع الله فيه من قدرة يخلق عمله ، ويختار أحد السبيلين من غير أن تؤثر فيه عوامل خارجية ، وبذلك يستحق الثواب أو العقاب فى الدرا الآخرة حسب ما قدم فى الدنيا من خير أو شر "(٢)

بل إن بعض المعتزلة مثل الجاحظ وثمامة بن الأشرس ، أثبتا أن القدر خيره وشره من العبد ، إلا أنهما يجعلان كسب الإنسان مقتصرا على الإرادة ، أما بقية أفعاله فهى تصدر منه طباعا كما يصدر الضوء عن الشمس والنور عن القمر . (٣)

---

(١)

(٢) انظر الملل والنحل : للشهرستانى : ١/ ٤٥ ، ٤٦ والفرق بين الفرق ١١٤-١١٥ .

(٣) الملل والنحل : ١ / ٧٥ .

وبالتأمل فيما ذهب إليه المعتزلة نجد أن رأيهم دخيل على الإسلام وتسرب إليهم ، إثر تأثرهم بالفلسفات القديمة . ويقال : إن أول من أظهر القول فى القدر معبد الجهنى وغيلان الدمشقى وأخذه عن نصرانى أسلم ثم تنصر كما مر .

ويذكر " فون كريمر " أن المعتزلة تأثروا فى رأيهم فى القدر بأب كنسى مسيحى هو يحيى الدمشقى الذى عاشر المسلمين وتأثروا به كثيرا(١) ولا غرابة فى ذلك فقد سبق القول بأن المعتزلة تأثروا فى فكرهم بالفلسفة القديمة وأهل النحل الزائفة .. وعكسوا هذا التأثر فى فكرهم المنحرف .

وإن كنا نرى أن ما ذهب إليه " كريمر " وغيره من المستشرقين أريد به تبعية المسلمين فى فكرهم للمسيحيين .

٢ – قولهم بالصلاح والأصلح :

الله تعالى عدل ومنزه عن الظلم ، بهذا يؤمن المعتزلة بيد أن إيمانهم بعدل الله وأنه منزه عن الظلم قادهم إلى القول بنظريتهم المشهورة " بوجوب الصلاح والأصلح " فالله تعالى بناء على عدله لا يفعل إلا ما فيه صلاح العباد وخيرهم ..

لكن !! هناك أمر يلفت الانتباه فى هذه القضية .. وهو أن المعتزلة يثبتون للإنسان الحرية المطلقة فى كل أعماله على الحد الذى نفوا معه تدخل القدرة الإلهية فى أفعال العباد ، حتى أطلق عليهم القدرية الثانية .. وهنا يقيدون قدرة الله تجاه أفعال العباد – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا – ففى الوقت الذى يقيدون فيه قدرة الرب يطلقون

(١) انظر أدب المعتزلة : ١٩ .

فيه حرية العبد بل جاوزوا الحد إلى القول بوجوب رعاية الأصلح على الله تعالى (١) .

وقول المعتزلة بـ " الوجوب على الله – تعالى – " فى كافة ما ذكروه من : فعل الصلاح والأصلح ، و" اللطف بالعباد " " ووجوب تحقيق وعيده كما يتحقق وعده " ، كل هذا طعن منهم فى إرادة الله تعالى وهو نقض : لقوله – سبحانه – وصفا لذاته : (فعال لما يريد) وكأنهم رفعوا الآية واستبدلوها بقولهم فعال لما يجب عليه .

والنظام – أحد قادتهم – يعلن هذا المبدأ صراحة على ما ذكره البغدادي " بأن الله لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم – سبحانك هذا بهتان عظيم – .. كما لا يقدر أن يزيد فى عذاب أهل النار ذرة .. ولا يقدر أن يُخرج أحداً من أهل الجنة عنها .. ولا يقدر على أن يلقى فى النار من ليس من أهل النار ... كما أن الله لا يقدر على أن يعمى بصيراً أو يزمن صحيحا ، ويفقر غنياً لأنه تعالى علم أن أصلح الامور كونه على ما هو عليه (٢) .

وتلك المعاني التى يرددها المعتزلة انعكاس لتأثرهم بالقدامى من الفلاسفة .. " الذين قضوا – كما يذكر ابن حزم – بأن الجواد لا يجوز أن يدخر شيئا لا يفعله ، فما أبدعه وأوجبه هو المقدر ، ولو كان فى علمه تعالى ومقدوره ما هو أحسن وأفضل مما أبدعه نظاماً وتركيبا وصلاحا لفعله (٣) .

---

(١) يراجع فى ذلك فتح البارى : لابن حجر : ١٤ / ٦ فى كتاب القدر من الجامع الصحيح .

(٢) انظر الفرق بين الفرق : ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٣) الملل والنحل : ٥٤/١ .

وما ذكره المعتزلة يتنافى مع جلال الله وكماله .. واطلاق قدرته قال الله تعالى " وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ " (١)

وقال " لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ " (٢)

فالله سبحانه لا يجب عليه شئ له القدرة المطلقة والعلم الأزلى جاء فى صحيح البخارى عن ابن مسعود – رضى الله عنه – حدثنا رسول الله (ﷺ)وهو الصادق المصدوق قال:"إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك إلى أن قال :

" فو الله إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع – أو باع – فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها"(٣) وهذا لا يصادر حرية الإنسان والا وقعنا فى الجبر المطلق .

يقول ابن حجر :

استدل بهذا الحديث على أنه لا يجب على الله رعاية الأصلح خلافا لمن قال به من المعتزلة لأن فيه أن بعض الناس يقضى جميع عمره فى طاعة الله ثم يختم له بالكفر – والعياذ بالله – فيموت على ذلك فيدخل النار فلو كان يجب عليه رعاية الأصلح لما ترك العبد عمراً طويلا وهو

(١) سورة القصص : آية رقم : ٦٨ .

(٢) سورة الأنبياء : آية رقم : ٢٣ .

(٣) رواه البخارى : القدرة – ١٤٤ / ٢٧٧ .

يعمل الصالحات ، حتى وقع فى الكفر ثم أماته([1]) فمن أين لهم أن فعل الأصلح واجب على الله – سبحانه وتعالى ؟ .

وقد حاول النظام أن يفلسف قضية الأصلح ويخضعها لإعمال الفكر والنظر فيما يتعلق بالقدرة الإلهية فذهب النظام إلى أنها من صفات الذات وهي ليست صفة إيجاد ما دام المقصود منها إثبات الذات ونفى العجز عنها ، وصفة إيجاد الفعل عند النظام هى الإرادة والإرادة الإلهية لا تعنى ، فى نظره ، أنها ميل لشئ يراد تحقيقه يسبق الفعل مباشرة ، لأن الله ليس فى حاجة إلى أن يريد أولا ثم يفعل ثانيا . فالإرادة الإلهية إذا تعلقت بإيجاد الله للأشياء فهى تعنى التكوين " **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** "

وإن تعلقت بأفعال العباد تعنى الأمر ..

فمعنى وصف الله بأنه مريد لأفعال عباده أنه أمر بها ونهى عنها([2]) هذا كلام غير صحيح إن القول بأن الإرادة المتعلقة بفعل العبد هي الأمر يلزمه الأمر بالشر وهو غير صحيح وفى ظل هذا المبدأ – المنحرف – يحدون من طلاقة القدرة إلى الحد الذى تبدو فيه عاجزة هزيلة – وهم فى ذلك يحاكون وثنية المجوس .

ونسى هؤلاء، أن الشر الذى يصيب الإنسان هو عين الخير وإن ظن أنه شر (إن الأمراض والأسقام شر على مجاز الكلام ، أما فى التحقيق فهى خير وصلاح ونفع) ([3]) .

---

(١) انظر فتح البارى : ١٤ / ٢٩١ .. وللعلماء كلام طويل فى هذا الباب .
(٢) راجع مقالات الإسلاميين : ٢/٢٥٩ والملل والنحل : ١/٥٦ .
(٣) انظر الانتصار للخياط : ٦٥ ومقالات الإسلاميين للأشعرى : ١/ ٢٩٩ .

(وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (١) فإذا نجح الإنسان في الابتلاء كان له الأجر والفوز و نو خر .

٣ – الحسن والقبح العقليان :-

وحتى يكون عدل الله : كاملا غير ناقص ، وجزاء الإنسان وفاقا لسعيه يجب – عند المعتزلة – أن تكون للعقل صلاحية إدراك حسن الأفعال والأشياء وقبحها (٢) حتى وإن لم يرد بها الشرع .

وهذا المفهوم يعكس مكانة العقل عند المعتزلة وإكبارهم له ، والاعتداد بقدرته ، ويعلنون صراحة أن العقل ينبغي أن يكون هو الفيصل في مجال التحسين والتقبيح لأن معرفة الحسن والقبيح واجبات عقلية وعلى الإنسان تحصيل معرفة البارى بالنظر والاستدلال .. وإن قصر في المعرفة استحق العفو به أبدا . (٣)

إن إعلاء شأن العقل وبيان مكانته أمر لا يتنافى مع تكريم الإسلام له لكن العقل له حدوده ومكانته .. ومجاله الذي لا يتعداه .

أصل الوعد والوعيد :-

وهذا الأصل عند المعتزلة يعني " أن الله تعالى وعد المطيعين بالثواب ، وتوعد العصاة بالعقاب ، وأنه يفعل ما وعد به وتوعد عليه لا محالة ، ولا يجوز عليه الخلف والكذب " (٤) .

---

(١) سورة الأنبياء : آية رقم : ٣٥ .
(٢) الملل والنحل : ٧١/١ .
(٣) المصدر السابق : ١ / ٨٥
(٤) شرح الأصول الخمسة : ١٣٥ .

وإيمان المعتزلة بهذا الأصل يتسق مع مفهوم العدل عندهم . وبلغ الإفراط منهم والتجاوز إلى القول : بأن الله لا يقبل توبة المقلع عن الذنب بعد العجز عن اقترافه .. يقول الجبائي : لا تصح توبة من خرس لسانه عن الكذب ولا توبة من جف ذكره عن الزنى " ؟ وللمعتزلة فلسفتهم في المبدا .. فقد جعلوا من أدلتهم على هذا " أن المذنب إذا علم أنه لا يعاقب على ذنبه بل يعفى عنه لم ينزجر عن الذنب ، لأن ذلك يكون تقريرا له على ذنبه وعدم التوبة عنه ، وكان إغراء للغير عليه " (١)

والقاضي عبد الجبار يعمد إلى التاويل للآيات والاحاديث التي تعارض هذا الاصل وتدحضه ففي قول الله تعالى " **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** " (٢)

قال : يحمل قوله تعالى " ما دون ذلك " على الصغائر " (٣)

وهذا المبدأ يصادم صريح القرآن وصحيح السنة فمن القرآن يقول الله تعالى " **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**" (٤)

أصل : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

المعروف عند المعتزلة كل فعل عرف فاعله حُسنه أو دل عليه ، والمنكر كل فعل عرف فاعله قبحه أو دل عليه (٥) .

---

(١)الايجي : المواقف – ٢/٤٤٦ .

(٢) سورة النساء : آية رقم : ٤٨

(٣) انظر شرح الأصول وفضل الاعتزال : ١٥٤ .

(٤) سور الزمر : آية رقم : ٥٣ .

(٥) شرح الأصول الخمسة : ١٤١ .